

سورة المؤمنون

- معانى الكلمات :
- أفلق : فاز .
- خاشع : خائف .
- اللفو : ما لا فائدة فيه .
- سلالة : خلاصة .
- نطفة : منيا .
- قرار مكين : هو الرحم .
- علقة : دم جامد معلق .
- مضغة : كأنها ممضوغة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نقف على صفات المؤمنين الذين كتب لهم الفلاح .
- ٢ - أن نتعرف على أصل النشأة الإنسانية .
- ٣ - أن نتيقن أن الموت نهاية الحياة الأرضية وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة

المحتوى التربوي :

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين ، إنه الوعد الصادق ، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، وقرار الله لا يملك أحد رده ، الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ، فلاح الفرد والمؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة ، الفلاح الذى يحسه المؤمن بقلبه ويمجد مصداقه فى واقع حياته ، والذى يشمل ما يعرفه الناس من معانى الفلاح ، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين فمن هم المؤمنون الذين كتب لهم هذه الوثيقة ، ووعدهم هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ؟ من هم المؤمنون الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح :

فهم الخاشعون الخائفون الساكنون في صلاتهم ، وعن الباطل من الشرك والمعاصي وما لا فائدة من الأقوال والأفعال معرضون ، وهم لزكاة أموالهم وأنفسهم يؤدون ، والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيها نهاهم الله عنه من زنا أو لواط ، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم ، وما ملكت أيماهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ، فمن ابتغى وراء ذلك غير الأزواج والإماء فأولئك المعتدون ، وهم الذين إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها ، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، وهم الذين يواظبون على صلاتهم في مواقيتها .

وتلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح ، وهى خصائص ذات أثر حاسم في تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التى تحياها ، الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله ، وأراد له التدرج في مدارج الكمال ، ولم يرد أن يحيا حياة الحيوان ، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام .

ولما كانت الحياة في هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبني الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنين الذين ساروا في الطريق إلى الغاية المقدرة لهم هنالك في الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال ، وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين ، وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال .

ومن صفات المؤمنين ينتقل إلى دلائل الإيمان في حياة الإنسان ذاته ، وفي أطوار وجوده ونموه مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية ، منتها إلى البعث في الآخرة مع الربط بين الحياتين في السياق ، وفي أطوار هذه النشأة الإنسانية ، وتتابعها بهذا النظام ، وبهذا الاطراد ما يشهد بوجود المنشئ أولاً ، وما يشهد بالقصد والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيراً ، فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة ، وعرض تلك الأطوار بهذا التتابع ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة في الحياتين : الدنيا والآخرة ، وهذا هو المحور الذى يجمع بين المقطعين في سياق السورة .

والقرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر في صنع الله ، فيخبر عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام ، خلقه من صلصال من حمأ مسنون ، ذلك أصل نشأة الجنس الإنسانى من سلالة من طين ، فأما نشأة الفرد الإنسانى بعد ذلك فتمضى في طريق آخر معروف ، فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل فتستقر في رحم امرأة .

والتعبير القرآنى يجعل النطفة طوراً من أطوار النشأة الإنسانية تالياً في وجوده لوجود الإنسان ، وهى حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل ؛ فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل

عناصره وبكل خصائصه في تلك النطفة ، كما يعاد من جديد في الجنين وكى يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب ، ومن النطفة إلى العلقة حينما تمتاز خلية الذكر ببويضة الأنثى ، وتعلق هذه بجدار الرحم تتغذى بدم الأم ، ومن العلقة إلى المضغة حينما تكبر العلقة وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط ، وتأتى مرحلة العظام فمرحلة كسوة العظام باللحم .

ثم كانت النشأة الأخرى ، فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية ، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر ، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء ، وليس هناك من يخلق سوى الله ، فتبارك الله الذى أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير في هذه الأطوار ، وفق السنة التى لا تبدل ولا تتحرف ولا تتخلف على أدق ما يكون النظام .

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة وأطوار النشأة ، فالحياة الإنسانية التى نشأت من الأرض لا تنتهى فى الأرض ؛ لأن عنصراً غير أرضى قد امتزج بها ، ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيوانى ، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبية ، وجعلت كماها الحقيقى لا يتم فى هذه الأرض ولا فى هذه الحياة الدنيا ، إنها يتم هنالك فى مرحلة جديدة وفى الحياة الأخرى ، والموت نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار ، ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة ، وبعده تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق ، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان ، ذلك لمن يسلك طريق الكمال .

ومن دلائل الإيمان فى الأنفس ينتقل إلى دلائل الإيمان فى الآفاق مما يشهده الناس ويعرفونه ، ثم يمرون عليه غافلين ، ويربط السياق بين المشاهدة الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية بوصفها من دلائل القدرة ، وبوصفها من دلائل التدبير فلقد خلق الله سبع سموات طبقات بعضها فوق بعض أو وراء بعض ، خلقها الله بتدبير وحكمة وحفظها بناموس ملحوظ ، وهو يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربيوتاً :

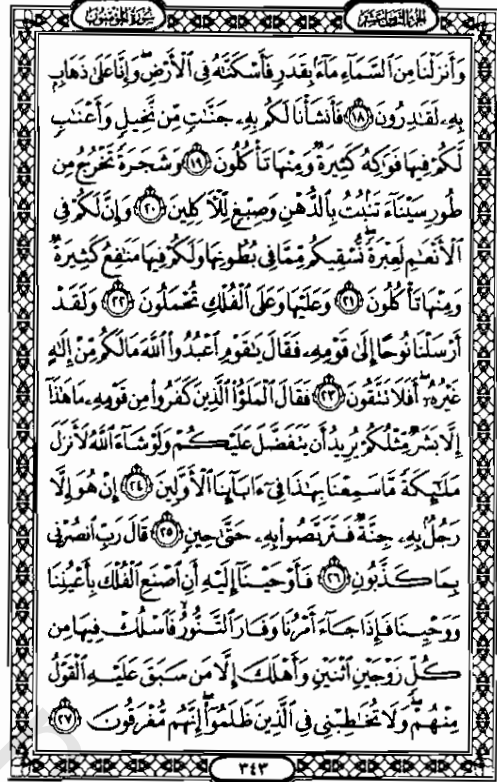
١ - لا قبول للأعمال الصالحة بدون الإيمان ، وأنه يزداد بكثرة الأعمال الصالحة .

٢ - من صفات المؤمنين خشوعهم فى الصلاة مع المحافظة عليها فى أوقاتها ، والإعراض عما لا خير فيه من قول أو عمل وأداء فريضة الزكاة لما لها من توثيق الروابط الاجتماعية بين المسلمين .

٣ - من صفات المؤمنين أنهم يحافظون على كل ما اتفقوا عليه .

معاني الكلمات :

- الدهن : الزيت الحام .
صبغ للاكلين : غذاء .
الفلك : السفن .
الملا : أشرف القوم .
تربصوا : انتظروا .
فار التنور : نبع الماء من النار .
اسلك : أدخل .
سبق : وجب .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على دلائل الإيمان في الآفاق بوصفها من دلائل القدرة .
- ٢ - أن نعلم حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا .
- ٣ - أن نعلم كيف كان استقبال الناس لحقيقة الإيمان على مدار الزمان .

المحتوى التربوي :

يمضى السياق في استعراض دلائل الإيمان في الآفاق ، وهو يربط بينها جميعا ، يربط بينها بوصفها من دلائل القدرة ، ويربط بينها كذلك بوصفها من دلائل التدبير ، فهنا تتصل تلك الطرائق السبع بالأرض ، فالماء نازل من السماء ، فجعل الله الماء إذا نزل يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، ولو شاء الله لجعلها يغور في طبقات الأرض البعيدة ، فالذى أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته ، إنها هو فضل الله على الناس ونعمته ، ومن الماء تنشأ الحياة ، والنخيل والأعناب نموذجان من الحياة التي تنشأ بالماء في عالم النبات ، ويخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون ، وهى من أكثر الشجر فائدة بزيته وخشبها ، وهى تنبت من الماء الذى أسكن في الأرض وعليه تعيش .

ويعرج من عالم النبات إلى عالم الحيوان ، فهذه المخلوقات المسخرة للإنسان بقدرة الله وتديره وتوزيعه للوظائف والخصائص في هذا الكون الكبير فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح والحس البصير ، ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير ، ويرى أن اللب السائغ اللطيف الذي يشربه الناس منها خارج من بطونها ، فهو مستخلص من الغذاء الذي تهضمه وتمثله فتحوله غدد اللب إلى هذا السائغ اللطيف ، ويحمل السياق منافعها ثم يخصص منها منفعتين ؛ فقد أحل للإنسان أكل الأنعام والحمل عليها .

ويربط السياق بين حمل الإنسان على الأنعام وحملها على الفلك بوصفها مسخرين بنظام الله الكوني ، الذي ينظم وظائف الخلائق جميعا ، كما ينسق بين وجودها جميعا ، وكل هذا من دلائل الإيحاء الكونية ، لمن يتدبرها تدبر الفهم والإدراك .

ويتنقل السياق من دلائل الإيحاء في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيحاء التي جاء بها الرسل جميعا ، ويبين كيف كان استقبال الناس هذه الحقيقة الواحدة التي لا تبدل على مدار الزمان ، وتعدد الرسالات ، وتتابع الرسل ، من لدن نوح عليه السلام ، فإذا نحن نشهد موكب الرسل أو أمة الرسل وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة ذات المدلول الواحد والاتجاه الواحد ، فإذا الكلمة التي قالها نوح عليه السلام هي ذاتها بنصها بقولها كل من جاء بعده من المرسلين ، فتجيب البشرية جوابا واحدا تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون .

وتأتى كلمة الحق على لسان نوح عليه السلام كما جاءت على لسان من جاء بعده من الرسل ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئا ، وهذه كلمة الحق التي لا تبدل ، يقوم عليها الوجود ويشهد بها كل ما في الوجود ، أفلا تخافون عاقبة الإنكار للعبادة الحققة وتستشعرون ما في إنكارها من تجن على الحق الباهر ، وما يعقب التجنى من استحقاق للعذاب الأليم ؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة ، ولا يتدبرون شواهدا ، فإذا هم يتركون حقيقة الكلمة التي يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود ليتحدثوا عن شخص نوح ، فالقضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء عنهم ، يريد أن يتفضل عليهم وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم ، وهم في اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التي يتوهمون أنه يعمل لها ، ويتوسل إليها بدعوى الرسالة في اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده ، بل يردون فضل الإنسانية التي هم منها ، ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ، ويستكثرون أن يرسل رسولا من البشر ، إن يكن لابد مرسلا ، فلو أراد أن يرسل رسولا لكان من الملائكة ، ويحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر ، ومثل هذا يقع دائما عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب فلا يتدبر الناس ما بين أيديهم من القضايا .

ويا ليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون ، إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون ، وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر ، والتخلى بين قلوبهم ودلائل الإيمان الناطقة في الوجود ، فإذا هم يتلقون هذه الدعوة بالتبجح والاثام لنوح عليه السلام بالجنون ، وأن ينتظروا حتى يأخذه الموت ، ويريحكم منه ومن دعوته ، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد .

عندئذ لم يجد نوح عليه السلام منفذًا إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ، ولم يجد موئلا من السخرية والأذى إلا أن يتوجه إلى ربه يطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب ، وشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق ، وكان العلاج هو الطوفان الذي يجتُب كل شيء ، ويجرف كل شيء ، ويغسل التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد فتنشأ على نظافة فتمتد وتكبر حتى حين ، وقد شاء الله أن يصنع نوح عليه السلام الفلك بيده ؛ لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل وبذل آخر ما في طوقه ليستحق المدد من ربه ، فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين الذين ينتظرون ولا يزدون شيئًا على الانتظار .

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤذن ، فإذا جاء الأمر وفار الموقد أو الفرن وانجس منه الماء ، فتلک هي العلامة ليسارع نوح ، فيحمل في السفينة بذور الحياة ، فيدخل فيها السفينة من أنواع الحيوان والطيور والنبات زوجين اثنين ، وأن يحمل فيها أهله إلا الذين كفروا وكذبوا فاستحقوا كلمة الله السابقة ، وسنته النافذة ، وهي الهلاك للمكذبين بآيات الله .

وصدر الأمر الأخير لنوح ألا يجادل في أمر أحد ، ولا يحاول إنقاذ أحد ولو كان أقرب الأقربين إليه ممن سبق عليهم القول ، وسنة الله لا تحابي ، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم ، من أجل خاطر ولى ولا قريب ، ولا يفصل هنا ما حدث للقوم بعد هذا الأمر ، فقد قضى الأمر وتقرر إغراقهم ، وهذا جزاء الكافرين الذين لم يستمعوا إلى كلمة الحق ولم يهتدوا إلى سواء السبيل .

ما ترشدنا إليه الآيات ترمويًا :

- ١ - ضرورة التفكير في الكون ، وما فيه من بدائع صنع الله تعالى .
- ٢ - حقيقة الإيمان الذي جاء به الرسل جميعا واحدة مع اختلاف الزمان والمكان واللغات .
- ٣ - لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل أقصى ما في وسعه .
- ٤ - لا محاباة ولا مجاملة في الدين من أجل خاطر قريب أو صديق .

معانى الكلمات :

استويت : تمكنت من الركوب .

منزلا : مكان نزول .

أنشأنا : خلقنا .

أترفاهم : نعمناهم ووسعنا عليهم .

مخرجون : مبعوثون للسؤال .

افتري : اخلق من عند نفسه وادعى .

غشاء : هالكين .

بعدا : هلاكا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن الأنبياء هم المثل الأعلى للبشر ، والقذوة الصالحة التى يجب أن يقتدوا بها .
- ٢ - أن نعرف أن أهل الكفر لا يصدر عنهم إلا ما هو شر وباطل لفساد قلوبهم .
- ٣ - أن نستشعر أن الترف يسبب كثيراً من المفاصد والشرود .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى تعليم نوح عليه السلام كيف يشكر نعمة ربه ، وكيف يحمد فضله ، وكيف يستهديه طريقه ، فعلمه أن يحمد الله الذى نجاه من القوم الظالمين ، وأن ينزله مكانا مباركا ، وأن يعترف له بآياته ، وهكذا يتأدب فى حق العباد وفى طليعتهم النبىون ، ليكونوا أسوة للآخرين ، ثم يعقب على القصة كلها ، وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة ، والله تعالى فاعل لما يشاء ، وقادر على كل شئ عليم بكل شئ وهو مختبر للعباد بإرسال الرسل ، والابتلاء ألوان : ابتلاء للصبر ، وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر ، وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب ، وابتلاء للتمحيص ، وابتلاء للتقويم ، وفى قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين .

ويمضى السياق يعرض مشهداً آخر من مشاهد الرسالة الواحد والتكذيب المكرور ، واستعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل ؛ إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التى جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذى لقوه من الجميع ، ومن ثم بدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء ، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة ، ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة ، كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية ، إنما ذكر الكلمة الواحدة في كل حلقة والاستقبال الواحد ؛ لأن هذا هو المقصود .

ثم أنشأ أمما وخلائق لم يحدد من هم ، وهم على الأرجح عاد قوم هود ، هؤلاء يؤخذون حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم ، أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلقا بعد سلف ، ثم أرسل إليهم رسولا فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ذات الكلمة الواحدة التى قالها من قبله نوح ، يحكيها بالألفاظ ذاتها ، مع اختلاف اللغات التى كانت تتخاطب بها القرون ، فماذا كان الجواب ؟

إنه الجواب ذاته على وجه التقريب ، فالاعتراض المكرور هو الاعتراض على بشرية الرسول ، وهو الاعتراض الناشئ عن انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين النفخة العلوية التى تصل الإنسان بخالقه الكريم ، والترف يفسد الفطرة ، ويغلظ المشاعر ، ويسد المنافذ ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرفهة التى تتلقى وتتأثر وتستجيب ، ومن هنا يجارب الإسلام الترف وقيم الدين ، وقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة ؛ لأنهم كالعفن يفسد ما حوله حتى لينخر فيه السوس ، ويسبح فيه الدود .

ثم يزيد المترفون هنا إنكار البعث بعد الموت والبل ، ويعجبون من هذا الرسول الذى ينبئهم بهذا الأمر الغريب ، ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التى لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض ، فالخير لا يلقى جزاء الكامل في الحياة الدنيا والشر كذلك ، فهؤلاء لا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ، ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبل كما يظنون ، لذلك هم يستعجلون ويعجبون من ذلك الذى يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون ، ويمزمون في تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد ، يموت جيل ويحيا بعد جيل ، فأما الذين ماتوا وصاروا ترابا وعظاما ، فهيهات هيهات الحياة لهم ، وهيهات هيهات البعث الذى يعدهم به ، وقد صاروا عظاما ورفاتا .

ثم إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة ، والغفلة عن تدبر حكمة الحياة التي تكشف عنها أطوارها الأولى ، لا يقفون عند هذه الجهالة إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله ، ولا يعرفون الله إلا في هذه اللحظة ولهذا الغرض من اتهام الرسول ، عندئذ لم يجد الرسول إلا أن يستنصر ربه كما استنصره من قبله نوح ، وبالعبرة ذاتها التي توجه بها إلى ربه نوح .

وعندئذ وقعت الاستجابة بعد أن استوفى القوم أجلهم ، ولم يعد فيهم خير يرجى بعد العناد والغفلة والتكذيب ، وليصبحن في حسرة وندامة بمخالفتك وعنادك فيما جثتهم به ، ولكن حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدى المتاب ، فقد اجتمعت عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم ، فأمسوا غثاء ، والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة ، لا خير فيها ، ولا قيمة لها ، ولا رابط بينها .

وهؤلاء لما غفلوا عن الخصائص التي كرمهم الله بها ، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا ، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى ، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ، فإذا هم غثاء كغثاء السيل ، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وذلك من فرائد التعبير القرآني الدقيق ، ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله للقوم الظالمين ، والبعد عن اهتمام الناس فبعدا في الحياة وفي الذكرى ، في عالم الواقع وفي عالم الضمير .

ويمضي السياق بعد ذلك في استعراض القرون أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل .

هكذا في إجمال بين طياته فحوى التكذيب من قلوب سيطر عليها الترف والتهيه بين زينة حياة قصيرة في أنفاسها غير أصيلة في روعة منظرها ، ولا تدوم غضايتها ، فخضرتها هي إعلان وفاتها ، ولكنه القلب البشري والنفس الدنية ترى اللحظة عمراً ، والدنيا غاية أهدافها ، ومادرت هذه النفس أن دنياها تلبس سربال القدر ، سارية في أخايد الفناء ، تخوض في مياه أسنة عفنة ولكنه الزكام الذي يأخذ بالأنوف والعمى الذي يغشى العيون ، والران الذي يسيطر على القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - التأدب مع الله تعالى والاعتراف بفضلله وحده وشكره على نعمه .

٢ - لم يحرم الإسلام التمتع بالطيبات من الرزق ، وإنما حث على أن يأخذ نصيبه منها ويشكر ربه عليها ، ويجعلها وسيلة للسعادة في الآخرة باستخدامها في طاعة الله .

٣ - الحث على العمل والدعوة إليه فقد اشتغل نوح عليه السلام بالنجارة .

معاني الكلمات :

أجلها : الوقت المحدد لهلاكها .

يستأخرون : يتأخرون .

تترى : متتابعين .

عالين : متكبرين .

ربوة : مكان مرتفع .

تقطعوا : تفرقوا .

غمرتهم : ضلّاهم .

نمدهم : نعطيههم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته في إرسال الرسل بالآيات في هلاك المكذبين .

٢ - أن نقف على آية ولادة عيسى من غير أب .

٣ - أن نعلم أنه إن انحرفت الأمة عن دين الله ورزقت سعة العيش كان ذلك استدراجا لها .

المحتوى التربوي :

يلخص السياق تاريخ الدعوة ، ويقرر سنة الله الجارية في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة وموسى وعيسى في أواخرها ، كل قرن يستوفى أجله ويمضى ، وكلهم يكذبون ، وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله ، وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون ، تتناقلها القرون ، ويختتم هذا الاستعراض الخاطف المجلل باللعة والطرده والاستبعاد من العيون القلوب .

ثم يجمل قصة موسى في الرسالة والتكذيب لتتمشى مع نسق العرض وهدفه المقصود ، ويبرز في هذا الاستعراض الاعتراض ذاته على بشرية الرسل ، ويزيد عليه تلك الملابس الخاصة

بوضع بنى إسرائيل في مصر وهم مسخرون خاضعون ، وهى أدعى في اعتبار فرعون وملته إلى الاستهانة بموسى وهارون ، فأما آيات الله التى معها وسلطانه الذى بأيدهما ، فكل هذا لا إيقاع له فى مثل تلك القلوب المطموسة المستغرقة فى ملابسات هذه الأرض وأوضاعها الباطلة وقيمها الرخيصة .

وإشارة مجملة إلى عيسى ابن مريم وأمه والآية البارزة فى خلفه ، وهى كآيات موسى كذب بها المكذبون ، وتختلف الروايات فى تحديد الربوة المشار إليها أين هى ؟ أكانت فى مصر أم فى دمشق أم فى بيت المقدس ، وهى الأماكن التى ذهبت إليها مريم بابنها فى طفولته وصباه كما تذكر فى كتبهم - وليس المهم تحديد موضعها ، إنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء الله لهما فى مكان طيب ينضرب فيه النبت ويسيل فيه الماء ، ويجدان فيه الرعاية والإيواء .

وعندما يصل إلى هذه الحلقة من سلسلة الرسائل يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل ، كأنها هم متجمعون فى صعيد واحد فى وقت واحد ، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التى تربط بينهم جميعا ، فيأتى النداء للرسل ليبارسوا طبيعتهم البشرية التى ينكرها عليهم الغافلون ؛ فالأكل من مقتضيات البشرية كذلك ، أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا ، وغاية موصولة بالملا الأعلى ، وهو نداء لهم ليصلحوا فى هذه الأرض ، فالعمل هو من مقتضيات البشرية كذلك ، أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا وغاية موصولة بالملا الأعلى .

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته ، إنما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه إلى أفقها الكريم الوضئ الذى أراده الله لها ، وجعل الأنبياء روادا لهذا الأفق ومثلا أعلى ، والله هو الذى يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق ، وتلاشى آماد الزمان وأبعاد المكان أمام وحدة الحقيقة التى جاء بها الرسل ، ووحدة الطبيعة التى تميزهم ووحدة الخالق الذى أرسلهم ، ووحدة الاتجاه الذى يتجهونه أجمعين ، فأمتهم أمة واحدة ؛ هدفا وغاية وفكرا وشعورا وسلوكا .

ويمضى السياق فيصور حال الناس بعد أمة الرسل ، تلك الحال التى جاء الرسول الأخير فوجدهم عليها مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التى جاءهم بها الرسل من قبل جميعا ، ويصور غفلتهم عن الحق الذى جاءهم به خاتم المرسلين ﷺ والغمرة التى تذهلهم عن عاقبة ما هم فيه ، بينا المؤمنون يعبدون الله ويعملون الصالحات وهم مع هذا خائفون من العقوبة .

فلقد مضى الرسل صلوات الله عليهم أمة واحدة ، ذات كلمة واحدة ، وعبادة واحدة ، ووجهة واحدة ، فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقى على منهج ولا طريق ، ويخرج

التعبير القرآني المبدع هذا التنازع في صورة حسية عنيفة ؛ لقد تنازعوا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقا ، وقطعوه في أيديهم قطعاً ، ثم مضى كل حزب بالمزقة التي خرجت في يده ، مضى فرحاً لا يفكر في شيء ، ولا يلتفت إلى شيء مضى ، وأغلق على حسه جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة ، أو يدخل إليه منها أى شعاع مضى ، وعاش الجميع في هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه ، مشغولين بما هم فيه ، مغمورين لا تنفذ إليهم نسمة محيية ولا شعاع منير .

وحين يرسم لهم السياق هذه الصورة يتوجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ إلى أن يدعهم في هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه ، حتى يفجأهم المصير حين يحىء موعده المحتوم ، ويأخذ في التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم ، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت ، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار ، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء ، وإنما هي الفتنة ، وإنما هو الابتلاء وهم لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قائم ومن شر مستطير .

وليعلموا أن الأمان الظاهر الذى يدعه الله لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارون ، وأن إمهاهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال ، إعطاءهم المزيد من المال والبنين هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير ، وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخرى والرهق والتعذيب .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ورحمة ، والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله وعدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير ، وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم فقد كشف القناع ووضحت الأمور ، إنه سبحانه يمهّل ولا يهمل ، ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التي قدرها بمشيئته .

وإلى جانب صورة الغفلة في القلوب الضالة يبرز صورة اليقظة الحذر في القلوب المؤمنة ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب من الحساسية والإرهاق والتخرج ، والتطلع إلى الكمال ، وحساب العواقب مهما ينهض بالواجبات والتكاليف ، فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى وهم يؤمنون بآياته ولا يشركون به ، وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - وجوب الأكل من الحلال ، ووجوب الشكر بالطاعة لله ورسوله .

٢ - حرمة الاختلاف في الدين وأنه سبب الكوارث والفتن والمحن .

٣ - الغنيمة الحقيقية للناس ليست بأموالهم وأولادهم ، ولكن بإيمانهم وأعمالهم الصالحة .

معاني الكلمات :

وجلة : خائفة .

وسعها : طاقتها .

غمرة : غفلة .

مترفيهم : المنعمون منهم .

يجارون : يصرخون .

تكصون : تعرضون عن سماعها .

خرجاً : أجراً .

لناكبون : منحرفون .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نقف على صفات المؤمنين المسارعين في الخيرات .

٢ - أن نعلم أن القرآن الكريم نعمة عظيمة يجب أن تقابل بشكر المنعم تعالى كما يجب أن نتفهم آياته ونتدبر معانيه ونعمل بمقتضاه .

٣ - أن نستشعر الخوف من معاناة العذاب بمواقفه أسبابه التي فعلها مترفو مكة .

المحتوى التربوي :

يكمل السياق صفات المؤمنين ، فهم ينهضون بتكاليهم وواجباتهم وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا ولكنهم بعد هذا كله يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم ، يخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .

يقول صاحب الظلال : « إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة ، ومن يستصغر كل عباداته ويستقل كل طاعاته إلى جانب آلاء الله ونعماته ، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شئ من حوله ،

ومن ثم يشعر بالهبة ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقي الله وهو مقصر في حقه لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً .

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة بهذه اليقظة ، وبهذا التطلع وبهذا العمل وبهذه الطاعة ، لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغرى ، ومثل هذا الطير في الناس كثير يغمرهم الرخاء وتشغلهم النعمة ويطغىهم الغنى ويلهيهم الغرور حتى يلاقوا المصير .

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم ، والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلوب ليست أمراً فوق الطاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة ، إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ، ومراقبته في السر والعلن ، ولقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس ، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة ، وكل ما يعملونه محسوب في سجل ينطق بالحق ، ويبرز ، ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين .

وإنما يغفل الغافلون لأن قلوبهم في غفلة وضلالة عن القرآن ، ولهم أعمال سيئة من دون ذلك فهم مندفعون في طريق آخر غير النهج الذي جاء به ، ثم يرسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغية المفاجئة فهؤلاء يفاجأون بالعذاب الذي يأخذهم أخذاً ، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجوار ، مستغيثين مسترحين ، ثم هاهم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب ، والتئيس من كل نجدة ومن كل نصير ، والتذكير بما كان منهم وهم في غمرتهم مستغرقون من سرهم الفاحش وهجرهم القبيح ، وقد كانوا عندما تتلى عليهم آيات القرآن يتراجعون على أعقابهم مستكبرين عن الإذعان للحق .

ويعود السياق ليسأل ويعجب من موقفهم ذاك الغريب : ما الذي يصدهم عن الإيمان بما جاءهم به رسولهم الأمين ؟ ما الشبهات التي تحيك في صدورهم فتصدهم عن الهدى ؟ ما حاجتهم في الإعراض عنه ، والسمر في مجالسهم ، بقالة السوء فيه وهم الحق الخالص والطريق المستقيم ؟

إن مثل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ لا يملك من يتدبره أن يظل معرضاً عنه ، ففيه من الجمال ، وفيه من الكمال ، وفيه من التناسق وفيه من الجاذبية ، وفيه من موافقة الفطرة ، وفيه من الإيحاءات الوجدانية ، وفيه من غذاء القلب ، وفيه من زاد الفكر ، وفيه من عظمة الاتجاهات وفيه من قويم المناهج وفيه من محكم التشريع ، وفيه من كل شيء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبئها ، ويأتى السياق بسر الإعراض أنهم لم يتدبروه .

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش : أفهم لا يعرفون محمداً وصدقته وأمانته وصيافته التي نشأ بها فيهم ؟ ! أم يقولون أنه افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدري ما يقول ، وما من شبهة يمكن أن يكون لها أصل ، إنها هي كراهية أكثرهم للحق ، ولو خضع الحق للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد الكون كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسد القيم والأوضاع ، لذا فقد جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءاً من التاموس الكوني تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزائه جميعاً .

وهذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذي يتمثل فيه ، ففوق أنه الحق هو كذلك مجدها وذكر ، وما كان لها من ذكر لولاه في العالمين ، وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها في تاريخ العالم حتى جاءها الإسلام ، وقد ظل ذكرها يدوي في آذان القرون طالما كانت به مستمسكة ، وقد تضاعف ذكرها عندها تخلت عنه فلم تعد في العير ولا النفير ، ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى عنوانها الكبير .

ويعود السياق إلى استنكار موقفهم ، وإلى مناقشة الشبهات التي يمكن أن تصدهم عما جاءهم به الرسول الأمين : في صيغة سؤال استنكاري : أطلبت منهم أجراً فهم يفرون مما تسألهم من أجر على الهداية والتعليم ، فإنك لا تطلب إليهم شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، فما عند ربك خير مما عندهم .

وماذا يطمع نبي أن ينال من البشر الضعاف الفقراء المحاويج وهو متصل بالفيض اللدني الذي لا ينضب ولا يغيض ، بل ماذا يطمع أتباع نبي أن ينالوا من عرض هذه الأرض وهم معلقو الأنظار والقلوب بما عند الله الذي يرزق بالكثير وبالقليل ؟ ألا إنه يوم يتصل القلب بالله يتضاءل هذا الكون كله بما فيه وكل من فيه .

ألا إنما تتطلب هدايتهم إلى المنهج القويم ، وإنهم ككل من لا يؤمنون بالآخرة حائدون عن النهج ضالون عن الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - المسلم دوماً يشعر بالتقصير مع إحسانه العمل .

٢ - قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ويحس آلاءه كل نفس وكل نبضة .

٣ - لولا القرآن ما كان للعرب ذكر في العالمين .

معانى الكلمات :

لجوا : تمادوا .

يعمّهون : يتحIRON .

استكانوا : خضعوا

يتضرعون : يتذللون

مبلسون : آيسون .

ذراكم : خلقكم بالتناسل .

يجير : يحمى من يشاء .

يجار عليه : ولا يغاث أحد منه .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الكبر والعناد والجهل أسباب للكفر وأضداد للإيمان .

٢ - أن نستشعر نعم الله علينا ونشكره عليها .

٣ - أن نقف على تسليم الكافرين بأن الله هو الخالق الفاعل المختار لما يشاء .

المحتوى التربوي :

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، والذين تنكبوا الطريق لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة ، فإن أصابتهم النعمة حسبوا أنها مسارعة مناهم في الخيرات ، وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم ، ولم تستيقظ ضمائرهم ، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر ، ويظلمون كذلك حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم القيامة فإذا هم حائرون يائسون ، وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة ، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله ﷺ .

والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله والشعور بأنه الملجأ والملاذ والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رق ولان ، واستيقظ وتذكر ، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء ، فأما حين يسدر في غيه ويعمه في ضلاله فهو ميؤوس منه لا يرجى له صلاح ، وهو متروك لعذاب الآخرة الذي يفاجئه ، فيسقط في يده ، ويبلس ويختار ويأس من الخلاص .

ثم يجول معهم السياق جولة أخرى عليها توقظ وجدانهم إلى دلائل الإيوان في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم ؛ فهذا السمع وحده وكيف يعمل ؟ كيف يلتقط الأصوات وكيفها ؟ وهذا البصر وحده وكيف يبصر ؟ وكيف يلتقط الأضواء والأشكال ؟ وهذا الفؤاد ما هو ؟ وكيف يدرك ؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال والمعاني والقيم والمشاعر والمدرجات ؟

إن مجرد معرفة طبيعة الحواس وطريقة عملها يعد كشف معجزا في عالم البشر ، فكيف يخلفها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ، غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة ، والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ، وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثاره في صنعه ، ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها بحس العابد لله في كل نشاط وكل متاع .

والله تعالى هو الذي خلقكم واستخلفكم في الأرض بعد ما زودكم بالسمع والأبصار والأفئدة ، وأمدكم بالاستعدادات والطاقات الضرورية لهذه الخلافة وإليه المرجع فيحاسبكم على ما أحدثتم في هذه الخلافة من خير وشر ، والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة ، وليس إلا الله يملك الموت والحياة ، فالبشر - أرقى الخلائق - أعجز من بث الحياة في خلية واحدة ، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلبا حقيقيا من حي من الأحياء ، إنما الله هو الذي يحيى ويميت وحده دون سواه .

وهو الذي يملك الليل والنهار ويصرفهما وهو سنة كونية كسنة الموت ، هذه في النفوس والأجساد ، وهذه في الكون والأفلاك ، وكما يسلب الحياة من الحي فيعتم جسده ويميت ، كذلك هو يسلب الضوء من الأرض فتعتم وتسكن ، ثم تكون حياة ويكون ضياء ، يختلف هذا عن ذاك بلا فتور وانقطاع إلا أن يشاء الله ، ولكن كثيراً من الناس لا يعقلون ما في هذا كله من دلائل على الخالق المدبر ، المالك وحده لتصرف الكون والحياة ؟

ويمضي السياق ليحكى مقولاتهم عن البعث والحساب بعد كل هذه الدلائل والآيات ؛ فإذا هم يسخرون مما يوعدون من البعث والجزاء ، أن كان هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل ولم يقع بعد ، والبعث متروك لموعده الذي ضربه الله له وفق تدبيره وحكمته ، ولقد كان مشركو

العرب مضطربى العقيدة لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السموات مدبر السموات والأرض ، المسيطر على السموات والأرض ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله وينسبون له البنات ؛ سبحانه وتعالى عما يصفون .

وهو هنا يأخذ بمسلماتهم التى يقرون بها ؛ ليصحح ذلك الاضطراب فى العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذى تقود إليه مسلماتهم لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون ، وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذى لا يفىء إلى منطق ، ولا يرتكن إلى عقل ، ويكشف عن مدى الفساد الذى كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه فى الجزيرة عند مولد الإسلام .

وترد الأسئلة عن ملكية الأرض ومن فيها ، ويعترفون بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله فلا يتذكرون أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا غيره .

ويأتى سؤال عن الربوبية المدبرة المصرفة للسموات السبع والعرش العظيم ، والسموات السبع قد تكون أفلاكاً سبعة ، أو مجموعات نجمية سبعة أو سُدُما سبعة ، أو عوالم سبعة ، أو أية خلائق فلكية سبعة ، والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود ، فمن هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم ويعترفون أنه الله ، فيجيب السياق بأنه إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه وأنتم تشركون معه أصناماً مهينة ، ملقاة على الأرض لا تريم ؟!

ثم يرد سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان ، سؤال عمن بيده ملكية كل شىء ملكية استعلاء وسيطرة ، ومن هو الذى يجبر بقوته من يشاء فلا يناله أحد ، ولا يملك أحد أن يغير عليه ، وأن ينقذ من يريد بسوء من عباده من ؟ فيعترفون بأنه الله ، فما لهم يصرفون عن عبادة الله ؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخطط كالذى مسه السحر ، ألا إنه الاضطراب والتعبط الذى يصاب به المسحورون .

ما ترشدنا إليه إليه الآيات تريبوياً :

١ - الاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله والشعور بأنه الملجأ والملاذ .

٢ - الشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة وتمجيده ثم عبادته وحده .

٣ - لسنا بمخلوقين عبثاً ولا متروكين سدى ، ونحن محاسبون بما أحدثنا من صلاح أو فساد .

معاني الكلمات :

أعوذ : أعتصم وأحتمي .

همزات : وساوس .

ارجعون : ردوني .

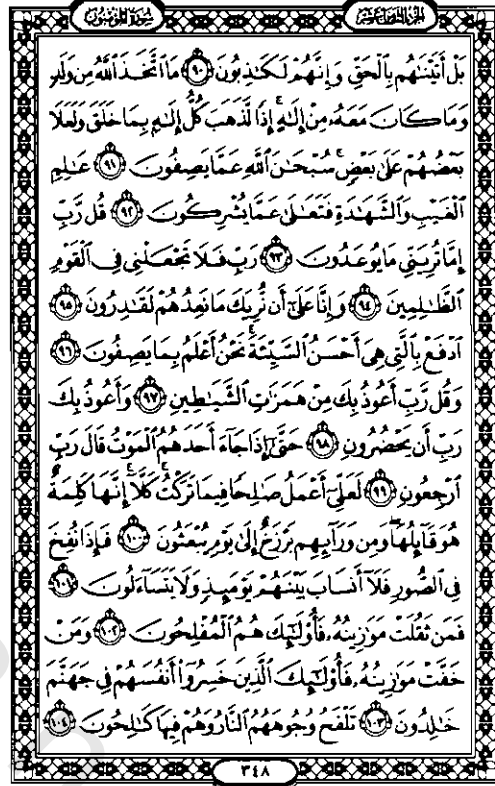
من ورائهم : أمامهم .

برزخ : مانع هو القبر .

أنساب : قرابة .

تلفح : تحرق .

كالهون : عابسون .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن منهج الإسلام دفع السيئة بالحسنة والصبر حتى يأتي أمر الله .

٢ - أن نتحصن بالله من همزات الشياطين في كل حين .

٣ - أن نتعرف على نهاية الظالمين .

المحتوى التربوي :

يقرر السياق حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد ، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك ، وفي اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل ، يحىء هذا التقرير في أساليب شتى بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكبر ، ثم يفصل فيما هم كاذبون : بأنه تعالى ينزه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم ، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة ، فلو قدر تعدد الآلهة ؛ لانفرد كل منهم بما خلق ، فما كان ينتظم الوجود ، والمشهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض

في غاية الكمال ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذى لا يبقى ولا يتنظم إلا بناموس واحد ، وتصريف واحد ، وتدبير واحد .

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون الذى تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه ، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره ، وكل جزء فيه وكل شئ يبدو متناسقا مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب ، تعالى الله عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً ، فهو يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون ، فليس لغيره من خلق يستقل به ، ويعلم من دون الله أمره .

وعند هذا الحد يلتفت السياق عن خطابهم وجدلهم وحكاية حالهم إلى الرسول ﷺ يأمره أن يتوجه إلى ربه مستعيذاً به أن يجعله مع هؤلاء القوم إن كان قد قدر له أن يرى تحقيق ما وعدهم به من العذاب ، وأن يستعيذ به كذلك من الشياطين ، فلا تثور نفسه ، ولا يضيق صدره بما يقولون . ورسول الله ﷺ في منجاة من أن الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ، ويتحقق ما يوعدون ، ولكن هذا الدعاء زيادة في التوقى ، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ، وأن يظلموا أبداً أيقاظاً ، وأن يلوذوا دائماً بحماه .

والله قادر على أن يحقق ما وعده به الظالمين في حياة الرسول ﷺ ، ولقد أراه بعض ما وعدهم في غزوة بدر ثم في الفتح العظيم ، فأما حين نزول هذه السورة وهى مكية فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتي هى أحسن ، والصبر حتى يأتى أمر الله ، وتفويض الأمر لله ، واستعاذة الرسول ﷺ من هزات الشياطين ودفاعاتهم وهو معصوم منها ، زيادة كذلك في التوقى وزيادة في الالتجاء إلى الله ، وتعليم لأمتة وهو قدوتها وأسوتها ، أن يتحصنوا بالله من مجرد قرب الشياطين لا من هزاتهم ودفاعاتهم ، ويحتمل أن تكون الاستعاذة من حضورهم إياه ساعة الوفاة .

يقول ابن القيم في (بدائع الفوائد) : « المستعاذ به هو الله وحده الذى يعيذ المستعيزين ، ويعصمهم ، ويمنعهم من شر ما استعاذوا به من شره ، وقد أخبر تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زاده طغيانا ورهقا ، فقال حكاية عن مؤمنى الجن ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ① ، جاء في التفسير : إنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فبييت في أمن وجوار منهم حتى يصبح ، فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم طغيانا وإثما وشرأ ، يقولون : سدنا الإنس والجن » .

ويأتى السياق بالدرس الأخير فى السورة فيستطرد فى الحديث عن نهاية المشركين ، فيبرزها فى مشهد من مشاهد القيامة ، يبدأ بمشهد الاحتضار فى الدنيا ، وينتهى هنالك بعد النفخ فى الصور فيأتى مشهد الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة وكأنها المشهد معروض للحظة للأنظار ، مشهود كالعيان فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد كلمة لا معنى لها ، ولا مدلول وراءها ، ولا تنبئ العناية بها أو بقائلها ، إنما كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب ، كلمة تقال فى لحظة الضيق ليس لها فى القلب من رصيد .

وبهذا ينتهى مشهد الاحتضار ، وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعا ، فلقد قضى الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب وأسدت الستار فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة ، إنما هم فى ذلك البرزخ بين بين إلى يوم يبعثون .

ثم يستطرد السياق إلى ذلك اليوم يصوره ويعرضه للأنظار ، ففيه تنقطع الروابط ، وسقطت القيم التى كانوا يتعارفون عليها فى الدنيا ، ويشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لا يتحدثون ، ويعرض ميزان الحساب وعملية الوزن فى سرعة واختصار ، فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة فأولئك الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة . فازوا بها طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا .

أما من ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خابوا وهلكوا ، وباؤوا بالصفقة الخاسرة فى جهنم مقيمون لا يظعنون ، النار تلفح وجوههم ، ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلع ، وتشوه هيئتها ويكدر لونها ، مشهد مؤذ أليم ، وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء ، فقد خسروا أنفسهم ، وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذى يتبقى له .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - على المسلم أن يظل يقظا ، ويلوذ بحمى الله دائما .
- ٢ - على المسلم أن يفوض أمره إلى الله ويدفع السيئة بالحسنة .
- ٣ - من يخف ميزانه يوم القيامة يخسر كل شيء .
- ٤ - وجوب الاستعاذة من الشياطين وهمزاتهم .

معاني الكلمات :

شقوتنا : شقاوتنا .

ضالين : منحرفين عن الهدى .

اخسؤوا : اسكتوا سكوت الذلة والهوان .

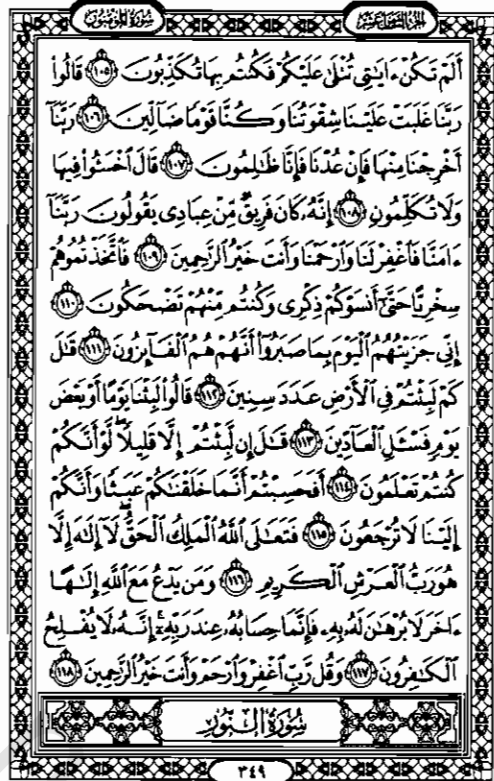
سخريا : مهزوءاً بهم .

العادين : الحاسبين .

عبثا : لعباً بلا ثواب ولا عقاب .

برهان : حجة .

يفلح : ينجو .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الاعتذار بالقدر لا ينفع صاحبه .

٢ - أن نقف على حسرة أهل النار .

٣ - أن نستشعر هول يوم القيامة وشدة الفزع فيه .

المحتوى التربوي :

يعدل السياق عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحسمى على فظاعته أهون من التأنيب والخزى الذى يصاحبه ، وكأنها نحن نراه اللحظة ونشهد فى حوار ممضٍ طويل ، وكأنها يخيل إليهم وقد سمعوا هذا السؤال أنهم مأذونون فى الكلام ، مسموح لهم بالرجاء ، وأن الاعتراف بالذنب قد يجدى فى قبول الرجاء ، فاعترفوا بأنهم قد غلبت عليهم الحجة وكانوا أشقى من أن تنقاد لها وتتبعها ، فضللنا عنها ولم نُرَزَقها .

وهو اعتراف تتجلى فيه المראה والشقوة ، ولكن كأنها هم تجاوزوا حدهم وأساؤوا أدهم ، فلم يكن مأذوناً لهم فى غير الإجابة على قدر السؤال ، بل لعله كان سؤالاً للتبكي لا يطلب عليه

منهم جواب فهم يزجرون زجراً عنيفاً قاسياً بأن يخرسوا ويسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين .

وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم ؛ إنما بلغ بكم السفه والتوقع أن تسخروا من آمنوا ، وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته ، وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله ، ويباعد بينكم وبين التدبير والتفكير في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود ، فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون فقد جزاهم الله على أذاكم لهم واستهزائكم منهم بالسعادة والسلامة والجنة ، والنجاة من النار .

وبعد هذا الرد القاسي المهين وبيان أسبابه ، وما في هذا البيان من ترذيل وتبكيث ، يبدأ استجواب جديد عن مقدار لبثهم في الأرض ، وأن الله سبحانه ليعلم ، ولكنه سؤال لاستصغار أمر الأرض ، واستقصار أيامهم فيها ، وقد باعوا بها حياة الخلود ، وإنهم ليحسون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها ، وإنهم لياثسون ضيق الصدر ، لا يعينهم حسابها وعدتها ، وهى إجابة الضيق واليأس والأسى والقنوط .

والرد : إنكم لم تلبثوا إلا قليلاً بالقياس إلى ما أنتم عليه مقبلون لو كنتم تحسنون التقدير أتم عودة إلى الترذيل والتعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق ، فحكمة البعث من حكمة الخلق ، محسوب حسابها ، ومقدر وقوعها ، ومدبر غايتها ، وما البعث إلا حلقة في سلسلة النشأة ، تبلغ بها كمالها ويتم فيها تمامها ، ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون ، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى ، وهى متجلية في صفحات الكون ، مبثوثة في أطواء الوجود .

وتنتهى بسورة الإيمان بتقرير القاعدة الأولى للإيمان .. التوحيد ، وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله ، في مقابل الفلاح في أول السورة للمؤمنين ، وبالتوجه إلى الله في طلب الرحمة والغفران وهو أرحم الراحمين ، وهذا التعقيب يجيء بعد مشهد القيامة السابق ، وبعد ما حوته السورة قبل هذا المشهد من جدل وحجج ودلائل وبيانات ، يجيء نتيجة طبيعية منطقية لكل محتويات السورة ، وهو يشهد بتنزيه الله - سبحانه - عما يقولون ويصفون ، ويشهد بأنه الملك الحق والمسيطر على الحق ، الذى لا إله إلا هو صاحب السلطان والسيطرة فهو رب العرش صاحب الكرم .

وكل دعوى بالوهمية أحد مع الله فهو دعوى ليس معها برهان ، لا من الدلائل الكونية ، ولا من منطق الفطرة ، ولا من حجة العقل ، وحساب مدعيتها عند ربه ، والعاقبة معروفة ، فالكافرون لا يفلحون ، وهذه سنة نافذة لا تتخلف ، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من الناموس الكبير .

وكل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع ، وقوة وسلطان في بعض الأحيان ، فليس فلاحاً في ميزان القيم الحقيقية ؛ إنما هو فتنة واستدراج ينتهي بالوبال في الدنيا ، فإن ذهب بعضهم ناجين في الدنيا ، فهناك في الآخرة يتم الحساب ، والآخرة هي الشوط الأخير في مراحل النشأة ، وليست شيئاً منفصلاً في تقدير الله وتدبيره ، ومن ثم هي ضرورة لا بد منها في النظرة البعيدة .

وأخر آية في سورة «المؤمنون» ، هي اتجاه إلى الله في طلب الرحمة والغفران ، وهنا يلتقى مطلع السورة وختامها في تقرير الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين ، وفي تقرير صفة الخشوع في الصلاة في مطلعها والتوجه إلى الله بالخشوع في ختامها ، فيتناسق المطلع والختام في ظلال الإيمان . إنها طرقات متوالية على الحس ، طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنوة غارقين في بيات عميق ، فالسورة بشير ونذير ، بشير لمن سلك الطريق القويم إلى ربه ، ونهج في حياته نهج الإيمان ، السورة تشير لمن أبصر فتبصر ، وأخذ بيده عقبات السير في سبيل الرشاد فقفذ بها خلف ظهره وقلبه وعقله وشعوره وسلوكه ، إنها بشارة الأمل إن حاولت غيوم اليأس أن تستبد .

والسورة نذير لتنهض الهمم وتستيقظ المشاعر ، وتفزع النفوس حتى لا تصرع العيون بصيرة الفوارق بين هذا وهذا ، وهذه وتلك ، فهي عدسة مكبرة لأشياء ربما تبدو صغيرة متناهية ، ولعلها سبب من أهم الأسباب التي تفلح وتخسر ، وقد أثبت منهج التجربة والاستقراء فعالية في قرارة النفوس حتى تطمئن ، وفي النتائج حتى تصح ، وسورة المؤمنين تعلن كيف يكون الإيمان ؟ وعلى أى صفة يكون المؤمنون ؟ أنها تعلن من أين يبدأ المؤمن وإلى أين ينتهى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - العذاب لا يكون يوم القيامة بالحرق فقط وإنما هناك عذاب التأنيب واللوم والحسرة .

٢ - فضيلة الصبر عظيمة والجزاء عليها عند الله عظيم .

٣ - استحباب الدعاء بالمغفرة والرحمة للمؤمنين والمؤمنات .